مارتن هيدغر

من نقد الميتافيزيقا الى فكر الكائن

الثورة الكوبرنيكية الثالثة

أ.م.د. كريم حسين الجاف (*)

المقدمة

تعرضت الميتافيزيقا في القرن العشرين إلى كثير من النقد في المشروع الفلسفي الغربي، ولا سيما في فترتي الحداثة، وما بعدها. فلقد وضع هذا المبحث الفلسفي العتيق، أي الميتافيزيقا في قفص الاتهام، وتعرضت إلى لنقد الصارم بسبب توجهها الذي يتسم بالتعالي، والكونية، والعمومية عند تحديدها لماهية الكائن وجوهره، أي في معرفة طبيعته الأساسية، وذلك عندما كانت سيده زمانها في الفلسفة القديمة، وبداية الفلسفة الحديثة.

في هذا البحث سنقف عند شيء من تاريخ الميتافيزيقا في إحدى التجارب النقدية العملاقة التي انبثقت في الخطاب الفلسفي المعاصر، أي من منظور الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر (١٨٨٩-١٩٧٦)، ذلك الفيلسوف الذي وجه ضرباته النقدية الكاسحة للميتافيزيقا، لكن في سياق انطولوجي هذه المرة، وعبر مفهوم الانطولوجيا الأساسية (Fundamental

ملخص

تهتم هذه الدراسة بالثورة التي أحدثها الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر في عملية نقد الميتافيزيقا التقليدية، والتي اطلقت عليها مجازاً (الثورة الكوبرنيكية الثالثة) في المشروع الثقافي الغربي. ويهتم البحث أيضاً بشروط هوية الكينونة وعلاقتها بمفهوم الاختلاف، من حيث دخوله طرفاً في كيفية فهم كينونة الكائن، ذلك الاختلاف الذي اهتمته ونسيته الميتافيزيقا التقليدية بحسب رأي مارتن هيدغر. يؤيد الباحث الآراء التي تقول: إن الممارسة الهيدغرية نقلت الخطاب الفلسفي من النزعة الجوهرية في الفهم إلى النزعة الحديثة (من الحدث) في فهم مسائل الميتافيزيقا، ولا سيما مسألة الكينونة التي تمثل المادة الأساسية، لأي خطاب فلسفي يسعى إلى فهم قدرة الكائن على الوجود في العالم.

الكلمات المفتاحية: ميتافيزيقا، اختلاف، الاختلاف الانطولوجي.

(*) كلية الآداب / الجامعة المستنصرية

(ontology) التي حددت الماهية الحقيقية لكيوننة الكائن (Being of beings) في سياق المحايثة، والتناهي، والزمانية، وذلك من خلال بواكير مشروعه لنقد الميتافيزيقا، ولا سيما الميتافيزيقا الكلاسيكية، الذي ظهر في كتابه (الكيوننة والزمن- ١٩٢٧)، فضلا عن مشروعه الثاني لنقدها، والذي أطلق عليه مفهوم الاختلاف الانطولوجي (ontological difference)، ولا سيما في كتبه وأبحاثه ونواته التي ظهرت بعد الكيوننة والزمن، وكان من أشهرها محاضراته الموسومة بـ (الهوية والاختلاف- ١٩٥٧).

هيدغر ونقد الميتافيزيقا (الثورة الكوبرنيكية الثالثة)

من أجل فهم حدود العلاقة بين الكيوننة والفكر، لا بد أن نتفحص طبيعة الميتافيزيقا وطريقة اشتغالها بعد الثورات العلمية والفكرية الكبرى التي اجتاحت العالم الغربي، وأرى أنه من الجدير بالإشارة إلى أن هناك ثلاث ثورات كبرى غيرت من كيفية تفكير الميتافيزيقا بالكيوننة.

إن أولى هذه الثورات كانت الثورة الكوبرنيكية نسبة إلى عالم الفلك نيكولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣)، تلك الثورة التي أزاحت النظام الميتافيزيقي البطليموسي مشيدة على أثره لنظام كوني جديد يقوم على التمرکز حول الشمس والذي أزاح إلى الأبد الأرض من مركز الكون، وجعلنا نعيد النظر في طبيعة حضورنا ودورنا في العالم الذي نعيش^(١)، ولا شك أن هذه الثورة قد أعادت الروح للكيوننة عبر إملانها بالفكر، أي الفكر الحرّ الذي غيبته السلطة الكنسية، لصالح

عالم ما بعد القمر (الغيبي)، وأصبح هذا الفكر ينشط ويستجيب لنداء الكيوننة في أفق عالم ما تحت فلك القمر، وعبر اشتراطاته الدنيوية، وتطوراته الحضارية.

أما الثورة الكوبرنيكية الثانية فقد كانت ثورة إبستيمولوجية قادها الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤)، تلك الثورة التي غيرت من طبيعة اشتغال الميتافيزيقا عبر إزاحة الفكر من دورانه حول الميتافيزيقا، إلى الدوران حول الإنسان، فضلا عن انتظام موضوعات المعرفة على وفق قدراته الحسية له^(٢)، ووضعت الفكر في علاقة مع الأرض بشكل مباشر^(٣)، على حدّ تعبير الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز، مما جعل الميتافيزيقا محددة بشروط التجربة الممكنة للعقل.

وأما الثورة الكوبرنيكية الثالثة كما أرى، فهي ثورة انطولوجية قادها مارتن هيدغر، وأحدثت هزات زلزالية من النوع المدمر^(٤) في عالم الفكر الانطولوجي التي سعت إلى تقويض أسس التفكير الميتافيزيقي، فضلا عن ابتكار طريقة مغايرة لفهم مسألة الكيوننة من دون الاستناد إلى تقاليد تلك الميتافيزيقا التي جعلت من هوية الكيوننة، أي وحدة الكائن مع ذاته ثابتا انطولوجيا من قبيل (المثال، والعلة الأولى، والفكرة المطلقة... الخ) تلك الثوابت التي عزلت الكيوننة عن التفكير في نور الوجود.

لقد افترضت الميتافيزيقا الكلاسيكية أن فعل الفكر الذاتي (= الكيوننة) يجب أن ينتظم على وفق ثابت انطولوجي جوهرى كما ذكرنا، وجاء هيدغر، ليزيح ذلك التقليد الذي هيمن على الخطاب الفلسفي لأكثر من ألفي عام كما يقول هو نفسه؛ ليستبدله بتقليد يفترض أن الكائن، أو

مرحلة ما بعد الكينونة والزمن.

يرى هيدغر أن مسألة فهم الكينونة تنتمي إلى تقليد جديد من تقاليد فهم الميتافيزيقا أطلق عليها مجازا مفهوم (الأنطولوجيا الأساسية)، ذلك التقليد الذي، ذلك التقليد الذي ظهر مع كتابه الكينونة والزمن، الذي يرى «أن التحليل الأنطولوجي لماهية تناهي الإنسان ينبغي أن يهيء الأساس لميتافيزيقا تنتمي إلى ماهية الإنسان، وعلى الميتافيزيقا لكي تكون ممكنة ينبغي أن تتناول الجانب الضروري من طبيعة الوجود الإنساني»^(٥)، وهي ميتافيزيقا خاصة تعرض تصورا محددا عن الكينونة من خلال تحليل طريقة وجود الكائن البشري (Da-sein) في العالم من أجل الكشف عن هيكلية الأساسية التي تشكل قوام كينونته.

يجد هيدغر في نقده المبكر للميتافيزيقا أن «كينونة الكائن ليست من طبيعة الكائنات»^(٦)، أي ليست لها وجود موضوعي على شاكلة الأشياء، إذ هي ليست من طبيعة الكائنات مثلما تم تأويلها في التقليد الفلسفي الأسكولائي الوسيط الذي كان يعني بها «الوجود المتحقق الذي هو عبارة عن شيء جامد متخثر»^(٧)، ذلك التأويل الذي يساوي بين جميع الكائنات بلا استثناء، ومن بينها الوجود الإنساني.

لذلك سعى هيدغر إلى التمييز بين الكينونة الإنسانية، وكينونة الكائنات الأخرى عبر توصيفه الشهير القائل: «إن ماهية الذازين تكمن في وجوده»^(٨)، أي تواجده في العالم، ذلك التواجد الذي «لا يمكن أن نشتهه من مفاهيم عليا»^(٩) مثلما فعلت الميتافيزيقا القديمة المستندة إلى قواعد المنطق الصوري (Formal Logic)؛ وذلك لأن كينونة الذازين جلية بذاتها

أي ثابت (معرفي، أو وجودي، أو أخلاقي) يجب أن ينتظم على وفق انفتاح فعل الفكر نحو حدث تاريخي أصيل، أي حدث انتماء مشترك بين الإنسان والكينونة، وهذا لا يمكن أن يحصل، إلا إذا أضحت مسألة التفكير، مسألة اصغاء لنداء الكينونة التي يستجيب لها الإنسان الذي هو ذلك الكائن الوحيد الذي تدخل مسألة الكينونة في مجال انشغاله الأنطولوجي.

فالثورة الكوبرنيكية في صيغتها الهيدغرية كما سنجد ذلك في تفاصيل بحثنا، قد عملت مراجعة جذرية لماهية الميتافيزيقا وطبيعة أسسها، عبر مفهومي الأنطولوجيا الأساسية، والاختلاف الأنطولوجي، فضلا عن سعيها إلى تقديم بديل ميتافيزيقي يؤسس لهوية جديدة تجمع الكينونة بالفكر، والإنسان بالكينونة بوصفهما انتماء مشترك يقترب من نور الوجود في حدود التناهي والزمانية، وهنا تكمن روح الثورة الكوبرنيكية لهيدغر، تلك الثورة التي أزاحت التقليد الميتافيزيقي الذي يجعل الهوية أساس الكينونة، وإحلال بديل أرحم في عالم الأنطولوجيا المعاصرة، ذلك البديل الذي جعل من الكينونة أساس الهوية، أي الهوية بوصفها فكرا في حقيقة الوجود (=العالم).

الأنطولوجيا الأساسية: تشریح تاريخ الميتافيزيقا

مع أن هيدغر يرفض رفضا قاطعا التمييز بين مراحل فلسفته الأنطولوجية*، إلا أننا سنقوم بذلك التمييز مرغمين؛ لأجل تحديد مراحل نقد الميتافيزيقا في خطابه الفلسفي، ولاسيما بين مرحلته المبكرة التي برزت جليا في كتابه الكينونة والزمن، ومرحلته اللاحقة التي ظهرت مع كتبه ومقالاته وندواته، أي في

على حدّ تعبير هيدغر، وقادرة على طرح أسئلة الكينونة بوصفها انتماءً مشتركاً بين الإنسان وكينونته؛ لذلك نجد أنه حتى السؤال وطبيعته "ينتمي الى سلوك السائل ذاته، وله، أي السؤال نمط خاص من انماط الكينونة أيضاً" (١٠) ، ولا ينفصل عنه، أي عن الدازاين ذلك الكائن الذي يتساءل عن وجوده الذي يتميز بالطبيعة الانوجدادية (Existence)، تلك الطبيعة التي توفر له "الألوية في الاهتمام بوجوده" (١١) في العالم الذي ينتمي اليه على نحو أساسي.

إنّ لقد كانت المهمة الأولى والمبكرة لمشروع الأنطولوجيا الأساسية تكمن في عملية توصيف الماهية الأساسية لكيونة الكائن، الذي هو الإنسان الذي يتشارك في الانتماء المشترك مع كينونته بوصفها هوية، أو الفكر الذي يجعل ذلك الكائن فاعلاً في الاستجابة لنداء الوجود، أي نداء العالم الذي يتواجد فيه.

أما المهمة الثانية لمشروع الانطولوجيا الأساسية، فقد كانت في أساسها نقداً، أو عملية تشريح لتاريخ الميتافيزيقا؛ وذلك عبر تحليل نقدي خاص ابتدعه هيدغر، لأجل مراجعة تاريخ الميتافيزيقا التقليدية** عبر قراءة تفكيكية لتراثها التليد.

يرى هيدغر أن بعضهم يعتقد أن التراث هو شيء من الماضي قد مضى وانقضى، وهو منقطع عن الحاضر، إذ إن هناك رأياً يرى أن «التراث هو شيء مضى ويمثل، جانباً من وعينا التاريخي الذي وُجد خلفنا، لكن الحقيقة أنه، أي التراث يأتي أمامنا ونواجهه بوصفه مصيرنا» (١٢) الذي يشاركنا عالمنا الراهن الذي نعيش فيه، ومن ثم فإنه من غير الممكن الانفصال عنه، وإقامة قطيعة معه؛

لذلك يمكن القول: إن عملية تشريح تاريخ الميتافيزيقا هو «عملية تملك للتاريخ، وتمثلاً جديداً لما ورثناه من ذلك التراث» (١٣) الذي يمثل كينونة الكائن، ومن أجل الكشف عن تاريخ تلك الكينونة من مفاهيمها الأساسية، ولاسيما تلك المفاهيم الميتافيزيقية التي هيمنت على طريقة انتاج مفاهيم تؤشر إلى كيفية تحديد طريقة وجود الكائن في العالم؛ وذلك لأن التراث يتحكم في عملية انتاج المفاهيم التي تحدد معنى الكينونة، وعندما يتحكم التراث بطريقة تحديد كينونة الكائن فإنه، سيغلفها ويحجبها مما سيقفل من قيمة ماهيتها ويجعل منها مجرد مسلمات تعيق نشاط اشتغال الكينونة من الوصول الى منبعها الأصلي الذي استمدت منه مفاهيمها التأسيسية» (١٤) وهذا يعني أنه ينبغي إزالة الحُجب التي تكونت، وأعادت عمليات التفكير بالتراث بوصفه يمثل كينونة الكائن.

ولأجل ذلك يرى هيدغر أنه إذا كان لتاريخ الكينونة أن يتسم بالشفافية، فإن عليه واجب تليين التراث الجامد، ووضع حد لعمليات الحجب الذي يمارسه، لأجل الكشف عن حقيقة كينونة الكائن في أصله (١٥)، أو أساسه الذي ظل محتجباً عن فكر الكائن الذي يؤلف هوية الكينونة، من خلال نشاط جينالوجي لا يمتاز بأي روح ميتافيزيقية؛ وذلك من أجل العودة الى أساس الميتافيزيقا.

إن التفكير الجينالوجي بحسب هيدغر الذي تشبّع بالروح النيتشوية، يجب أن يتفكر في مسألة الكينونة بوصفها قدراً تاريخياً أصيلاً، وهذا النشاط الجينالوجي لا يمكن أن يحدث من دون «تدمير المحتوى التقليدي للمعرفة القديمة؛ لأجل الوصول الى تلك

نور الوجود.

ونجد هنا أن هيدغر يستعين بالمنهج الفينومينولوجي لفهم كينونة الكائن في سياق الانطولوجيا الأساسية، ولكن ليس على طريقة استاذة مؤسس الفينومينولوجية الفيلسوف الالمانى ادموند هوسيرل (١٨٥٩-١٩٣٨) الذي ابتدع ذلك المنهج بوصفه مقارنة ابستمولوجية تقصد الأشياء ذاتها من أجل إدراك دلالاتها الذاتية في ضوء التجربة في عالم العيش، ولكن على نحو ترنسندنتالي، بل نجد أن هيدغر قد جعل هذا المنهج وسيلة لفهم كينونة الكائن وتأويله بوصفه انكشافا انطولوجيا، ذلك الفهم الذي هو نمط من انماط الكينونة التي تكشف عن ذاتها فينومينولوجيا، ولأجل ذلك يصرح هيدغر في خطابه الفلسفي المبكر: «إن الفلسفة هي انطولوجيا شاملة، لكنها ذات سمة فينومينولوجية»^(٢٠) تكشف عن حقيقة الكينونة بالفكر وليس بالتصورات الشكلية المجردة التي تشتغل في حدود المنطق الصوري المجرد.

ما بعد الكينونة والزمن: معاودة التفكير في أساس الميتافيزيقا

بعد مشروع الكينونة والزمن، يستمر هيدغر في مشروعه الزلزالي المدمر لتقويض أسس الميتافيزيقا، ولا سيما إتھا توفر لنا الطريقة التي تحدد بها الكائن في كليته، أي في عالمه، ذلك العالم الذي هو «نور الكينونة حيث الإنسان يظهر باشتراطات ماهيته الملقاة فيه»^(٢١)، أي في العالم الذي يمثل القوام الأساسي لكينونته المتواجدة في العالم على نحو فعلي؛ لذلك فإن القوام الأساسي للإنسان بوصفه وجودا في العالم يمكن عده «ماهية الوجود للكائن؛ وذلك بسبب البعد المنفتح والمنير الذي منه وبه ينتشر

الممارسات الأولى التي أنجزنا من خلالها أجهزتنا المفاهيمية الأولى لتحديد ماهية الكينونة»^(٢٢)، مثلما أدركها الأغرقي أول مرة حين دشنا سؤال الميتافيزيقا الأول، أعني الكينونة، ذلك السؤال الأصيل والمصيري الذي لا يمكن تجنبه، بل علينا واجب استذكاره، أي أن «نستذكر الميتافيزيقا بوصفها مرحلة ضرورية من تاريخ الكينونة الذي يمهّد لنا التفكير في الكيفية التي تحدد بها الكينونة حقيقة الكائن»^(٢٣) في العالم.

لا شك أن ذلك الأمر يعدُّ من واجبات تاريخ الفلسفة، فإذا كانت الميتافيزيقا هي نسيان كينونتها بوصفها الأساس المحتجب لها، فإن تاريخ الفلسفة يمثل الجانب الاستذكاري لها؛ لذلك فإن عملية تشريح تاريخ الميتافيزيقا لا يعني تدميرا للتاريخ، بقدر ما هو عملية تملك له، وليس الانفصال عنه، فضلا عن الإصغاء إليه؛ لأجل التفكير فيما لم يفكر فيه، أي التفكير فيما دخل حيز النسيان عبر الميتافيزيقا، والتي هي الكينونة ذاتها، ولكن من منظور فينومينولوجي، ذلك المنظور الذي ينكشف به «مجموع ما يظهر في ضوء النهار، أو يمكن أن يحضر في مجال الضوء»^(٢٤)، أي ضوء الوجود الذي هو العالم الذي يتواجد فيه الدازين بوصفه الوجود هناك يعيش تجربة الوجود.

وهذا الظهور في ضوء النهار لا يمكن أن يحدث إلا عبر اللغة، أو الكلام اللوغوسي نسبة الى (Logos) بالتأويل الهيدغري، ذلك الكلام الذي يجعل من الكائنات مرئية بوصفها أشياء غير محتجبة»^(٢٥)، أي في وضع الإنكشاف، ذلك الوضع الذي لا يجب عن الكائن أساسه، أي حضوره الذي يعبر عن انفتاحه على

ذلك الوجود»^(٢٢) الذي يفتح على العالم بوصفه قدراً أصيلاً يسعى إلى إحداث الفارق في ذلك العالم.

إن ذلك البعد الذي تتجلى به الكينونة في علاقتها مع الإنسان بوصفه انتماء مشتركاً بينهما، ذلك الانتماء الذي يحصل بعد امتلاء الكينونة بالفكر الذي يشكل روحها، أي روح الكينونة هو الذي جاء بهيدغر؛ لينتقد الميتافيزيقا التي حرمت الكينونة من الفكر، تلك الكينونة على وفق التراث الميتافيزيقي تتأسس على الفكر التمثيلي (Representative thought) المؤسس من دون الإهتمام بالاختلاف بين الكائن وكينونته، ولذلك استهدف هيدغر أساس الميتافيزيقا التي كانت السبب الرئيسي في عملية حجب الكائن عن كينونته؛ وذلك عبر تقويض تاريخها الذي يحتوي على عوائق تمنع التعشق بين الإنسان وكينونته.

لذلك يرى هيدغر أن الفلسفة في ماهيتها عبارة عن ميتافيزيقا فهي تفكر في الكائن في كليته (العالم، والإنسان، والله)، وذلك عبر النظر إلى الكينونة من جهة انتماء الكائن إلى الكينونة^(٢٣)، ومن ثم فإن تلك الميتافيزيقا قد فكرت في الكائن بوصفه كائناً، خلال التفكير التمثيلي الذي يمنح عللاً لها؛ وذلك لأن كينونة الكائن منذ بداية الفلسفة تتجلى بوصفها مبدأ^(٢٤)، ومن ذلك المبدأ يمكن تحديد الكينونة التي تحدد طريقة وجود الكائن وحضوره في العالم، وهذا ما عملت به الفلسفة طوال اشتغالها التقليدي في عصورها القديمة والحديثة.

ولأجل الوقوف على مشكلة الميتافيزيقا التي تحجب ذاتها، أي كينونتها توجب على هيدغر العودة إلى أساس الميتافيزيقا؛ للوقوف

على أصلها من خلال ترسيمة ديكرتية وضعت توصيفاً للفلسفة، إذ يقول ديكرت: إن الفلسفة كلها مثل الشجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزيقا، والفروع التي تتفرع عن الجذع هي سائر العلوم الأخرى^(٢٥)، لكن هذا الترسيمة لم تضع أساس الأساس، أو الأرضية التي تستمد منها تلك الميتافيزيقا وجودها، تلك الأرضية التي بقيت غائبة عنها، بل وطواها النسيان من فرط عدم التفكير فيها؛ لذلك فإن «الأساس والأرض هما العنصران الذي فيه يُجيب جذر الشجرة»^(٢٦)، أي الميتافيزيقا؛ ذلك الجذر أو الأساس الذي نسبت تلك الميتافيزيقا التفكير فيه.

لقد وجد هيدغر أن الميتافيزيقا بقدر ما تتمثل دائماً الكائن بما هو كذلك، فهي لا تفكر في الكينونة ذاتها؛ ذلك لأن الفلسفة لا تركز انتباهها على أساسها، إنما تترك دائماً أساسها تتركه بفعل الميتافيزيقا، لكنها لا تهرب أبداً من أساسها^(٢٧)؛ وذلك لأن الفكر، أي فكر الكائن يرصد دائماً مسار تلك الميتافيزيقا، لكي يصح طريقة سيرها عبر إزاحتها عن التفكير التمثيلي الذي ينسبها الانشغال بأساسها، أي كينونتها بوصفها فكراً غير مؤسس على مقولات تفصلها عن حقيقة الوجود.

فالتفكير الميتافيزيقي الذي يبحث للكائن عن مبدأ ينحاز ويتبدى في الذي يحضر، إذ يتصور هذا الكائن في حضوره ويقدمه انطلاقاً من أساسه بوصفه كائناً مؤسساً على ذلك المبدأ^(٢٨) الذي يحدد طريقة وجوده في العالم، وليس انكشافاً في نور الوجود يكشف عن ماهيته بحرية تامة عبر استحضار واستعداد يبعد كل الأفكار المسبقة النفسية والأبستمولوجية؛ لأجل ترك الشيء، أو الكائن ينكشف أمامنا

قبلي له، ويمكن أن يكون الشرط الأساس لكل ميتافيزيقا تسعى الى التفكير في أساسها الذي هو الكينونة ذاتها التي تجعل الكائن ينكشف على أنحاء مختلفة، وعلى وفق المنظور الأنطولوجي الذي اختطه هيدغر لفلسفته.

إن هذا النوع من الميتافيزيقا لا يمكن أن يكون ممكنا الا عندما، نمهد للانتقال من الفكر التمثيلي الى نوع جديد من التفكير المفكر، وذلك عبر السؤال ما الميتافيزيقا؟^(٣٢) ذلك السؤال الذي يسعى الى حرث أرض شجرة الفلسفة لتأسيس ميتافيزيقا تختلف تماما عن الميتافيزيقا التقليدية التي لم تطرح السؤال على أساسها الذي يمثل الكينونة ذاتها التي تكشف عن ماهيتها بوصفها فعلا ذاتيا للفكر.

الاختلاف الانطولوجي: من التمثل الى الفكر

إن العلاقة مع الكينونة من منظور هيدغر هو عملية احساس بالوجود، أي علاقة حياة، فهي أي الكينونة تقيم فينا إقامة وجودية، ندرکہا بوصفها فکرا غير مؤسس، فضلا عن انها تبقى محتجبة عن الإنسان الذي يتساكن معها بوصفها القرب، ومع أنها من بين الكائنات الأكثر بعدا عنه، إلا أنها أقرب اليه من كل كائن من قبيل: صخرة، أو حيوان، أو عمل فني، أو مأكنة، أو ملاك، أو الله^(٣٣)، ولذلك فحين يدرك الكائن كينونته سيتمكن من التفكير بوصفه اختلافا، إذ إن الكينونة في حد ذاتها تنكشف على نحو دائم، بوصفها ظهورا وتحجبا في الوقت نفسه، وأما الكائن فإنه يتخذ في كل مرة وضع معين على نحو حاسم بسبب النور الذي ينبعث من الوجود، ذلك النور الذي يظل محتجبا ومختفيا^(٣٤)، ويكون بعيدا عن أي تمثيل ميتافيزيقي.

بوصفه موضوعا^(٣٩) يظهر على أسس انطولوجيا تأويلية، وليس على أسس التفكير التمثيلي الميتافيزيقي؛ وذلك لأن انكشاف الكائن ليس عملية تطابق بجملة الكائنات المعرفية في الواقع^(٣٠)، فالمسألة مرتبطة بتجلي الكينونة على نحو أنطولوجي، وليس على نحو معرفي يستند الى مفهومي التطابق، والتوافق للذين يرتبطان في الفلسفتين المثالية والواقعية، لذلك فإن تاريخ الفلسفة سيصبح مع هيدغر عبارة عن تاريخ الكينونة التي تنكشف لذاتها عبر مسار اللا تحجب.

يرى هيدغر أن عيب الميتافيزيقا يكمن في طريقة اشتغالها على التفكير التمثيلي، ذلك التفكير الذي يبعدها عن أساسها؛ وذلك لأن ماهيتها، أي التحجب يغيب عن ظهور الانكشاف ويختفي من أجل المنكشف الذي يظهر في صورة الكائن^(٣١) الذي يتم تمثيله عبر المبادئ المتمثلة التي يتم تأسيسها عبر الميتافيزيقا، تلك المبادئ التي جعلتها تنسى طرح السؤال على ماهيتها، وانشغلت بالكائن بما هو كذلك، وهذا ما جعل هيدغر يطلق على حالة الميتافيزيقا نسيان الكينونة (Forgetting being)، فنسيان الكينونة قد جعل الكائن، أو الدازاين بلا فكر، وبلا هوية تجعل الإنسان مع كينونته شيئا واحدا بالفكر.

يرى هيدغر أن الدازاين ليس بنافذة مغلقة من الداخل، بل هو حدث منفتح على نور الوجود، ومتعال خارج الذات نحو العالم بالفكر؛ لذلك فلا بد من أن يصبح تفكيرنا أكثر راهنية، ويمر على الكينونة ذاتها، لأجل الاستجابة لنداء الوجود الذي يكشف لنا حقيقة الكائن ذاته من دون تمثيل مقولاتي

من هنا نجد سعي هيدغر الى ابتكار وضعيات تأويلية لفهم الكينونة خارج مجال منظومة التمثيل، وبعيدا عن أفق الميتافيزيقا التقليدية، وضعيات تسعى الى الكشف عن كيفية تجلي الكينونة بوصفها اختلافا أنطولوجيا عن سائر الكائنات، وبعيدا عن تراث عالم الميتافيزيقا الذي ينسب حقيقة ذلك الاختلاف، إذ يشتغل هذا العالم كما ذكرنا على الفكر المؤسس الذي يحجب ذلك الاختلاف، ويمنع الكينونة من إتخاذ مسارات لا تستند الى أي فكر تأسيسي يكون أساسا لها من خلال منعها من إدراك حريتها الانطولوجية التي تدع الكائن أن يكشف عن ماهيته في نور الوجود.

ومن أجل تخطي عقبة الميتافيزيقا التمثيلية سعى هيدغر، ولا سيما في خطاباته الفلسفية التي ظهرت بعد ظهور كتابه الكينونة والزمن الى الاقتراب من حقيقة الكينونة عبر تقديم نقد جذري لمفهومى الهوية التي تستند الى قواعد المنطق الصوري، والتصور اللاهوتي للانطولوجيا اللذين حجبا عن الكائن كل محاولة لفهم كينونته بوصفها إختلافا غير مؤسس على ثوابت وجودية، أو معرفية، أو أخلاقية، تلك الثوابت تحجب عن الكينونة من إدراك أساسها وتجعلها في طي النسيان.

تفكيك الفهم التقليدي لمفهوم الهوية

في سياق نقده الجذري للميتافيزيقا، يقوم هيدغر بمناورة كبرى يسعى من خلالها الخروج من هيمنة الميتافيزيقا التسلطي على فكر الكائن، تلك الميتافيزيقا التي اثارَت سؤال الكينونة وعلاقتها بالكائن بوصفه أساسا لها.

لذلك نجد أن هذه المناورة قد أحدثت

مسارا جديدا في فهم الكينونة، مسارا يؤسس لفهم لا ميتافيزيقي يحرر الكينونة من قيود الميتافيزيقا، عبر إثارة سؤال الهوية، ذلك السؤال الذي أفلت من مدار الميتافيزيقا التمثيلي؛ ليدخل مدار الفكر التأويلي من خلال الاقتراب من الخطاب الفلسفي لما قبل سقراط، ذلك الخطاب الذي وجد ضالته في فلسفة بارمنيدس لفهم مسألة الكينونة؛ وذلك عبر طرح سؤال الهوية.

فقد وجد هيدغر أن بارمنيدس يتفكر بالكينونة من منظور الهوية، أي من خلال وحدة الكائن مع ذاته، وهذا ما أهملته الميتافيزيقا عندما تفكرت بالهوية بوصفها اساس الكينونة، مما جعلها الميزة الأساسية للهوية التي خضعت لأدوات التفكير الميتافيزيقي، وجهازه المفاهيمي ذي النزعة التمثيلية، التي تأسست في زمن أفلاطون وأرسطو بحسب منظور هيدغر.

لكن السؤال الأكثر أهمية يكمن في الكيفية التي فكر بها هيدغر انطلاقا من بارمنيدس في مسألة الهوية؟

لا شك أن الكيفية التي فكر بها هيدغر في مسألة الهوية تكمن في الابتعاد عن الفهم الميتافيزيقي لها، ومن ثم الاقتراب من الفكر ما قبل الميتافيزيقي الذي تأسس على يدي الفيلسوف الايلي بارمنيدس (٥٤٠ ق.م - ٤٨٠ ق.م)؛ ذلك الفيلسوف الذي أدرك الهوية بوصفها وحدة بين الفكر والكينونة، إذ يقول في إحدى شذراته « إن الشيء الذي يمكن أن يكون موضوعا للتفكير، والشيء الذي يوجد من أجله التفكير، هو (الشيء نفسه) في كلا الوضعين؛ وذلك لأنك لن تجد تفكيراً من دون شيء موجود يثار حوله الكلام»^(٢٠) في الوجود.

اليونانية)، تلك القواعد التي لم تميز بين الكائن والفكر، إذ وجدت أن الفكر والكيونة هما الشيء نفسه، وهذا العلاقة ليست تكراراً، أو تحصيل حاصل (tautology) كما عبرت عنه تقاليد الميتافيزيقا المستندة الى مبادئ الفكر الأساسية للمنطق القديم التي فهمت علاقة الكائن بذاته بطريقة تقتصر الى الامتلاء الوجودي لذلك الكائن.

وهذا ما دعا هيدغر الى تبني خطاب بارمنيدس الأنطولوجي، ذلك الخطاب الذي يرى أن الكيونة تنتمي الى الهوية، أي الهوية بوصفها وحدة الفكر والكائن بوصفها انتماء مشتركاً، أي انتماء ذاتياً، فالذاتي يدرك التفكير بوصفه كيونة، أي بوصفه فعلاً للفكر^(٣٨)، فعلاً مفتوحاً بين الكيونة والأنسان.

ولأجل تحقيق ذلك الانتماء المشترك بين الإنسان والكيونة ينبغي على الفلسفة مغادرة أرض الميتافيزيقا الصلبة التي تتفكر بالكيونة بوصفها أساساً مطلقاً ومفارقاً للفكر، وذلك لأجل الحصول على التفكير في الشيء نفسه، ذلك التفكير الذي نتعلمه لأجل أن نوجه عنايتنا نحو ما هو كائن، لأجل الاهتمام به عند كل نداء للكيونة^(٣٨)، ذلك النداء الذي يصغي اليه الإنسان بوصفه كيونة الكائن، ومن خلاله تحدث عملية الانتماء المشترك مع الكيونة التي تجعله مفتوحاً على نور الوجود.

لذلك يمكن القول وبحسب هيدغر: إن الإنسان في علاقته بالاستجابة لنداء الكيونة الذي هو الكائن الوحيد الذي يقوم بذلك العمل لاتعني أننا نسعى الى تحديد ماهيته النهائية، بقدر ما نسعى الى أن يتخطى حدوده^(٣٩)، أي يتعالى على ذاته لأجل الخروج الى العالم، أي الانفتاح

إن هذه الشذرة جعلت هيدغر يميل الى تفسير بارمنيدس، من أجل تصحيح مسار الميتافيزيقا، لكي تكون أداة في فهم الكيونة بوصفها اختلافاً أنطولوجياً بين الكيونة والكائن، فضلاً عن أن الهوية تعبر عن عمق العلاقة بينهما؛ لأن الهوية في الأصل هي كلام، أو خطاب عن كيونة الكائن، كلام يعبر عن حالة التطابق بين الفكر والكيونة بوصفها حالة من الانتماء المشترك بينهما، أي بوصفها وحدة الكائن مع ذاته في الوجود..

وانطلاقاً مما تقدم ينتقد هيدغر المفهوم التقليدي لمبدأ الهوية، الذي هو مبدأ الفكر الاساسي للميتافيزيقا التي تأسست على قواعد المنطق الصوري، والذي يفهم حالة التطابق (Identical) بين الكائن وذاته على أنه تحصيل حاصل، وليس علاقة الكائن بذاته بوصفها هوية. لذلك فقد كانت الصيغة ($A=A$) تتحدث عن المساواة فهي لا تحدد (A) على أنه ذاته؛ لأن الصيغة الشائعة التي سادت عن مبدأ الهوية بالطريقة التي يتم عرضها تخفي صراحة ما يريد المبدأ أن يقوله: (A هو A)، أي أن كل (A) في حد ذاته هو الشيء نفسه^(٣٦)؛ وذلك لأن الرابطة، أو الضمير (هو) هو محور الصيغة التي تُنظم العلاقة بين الكائن وذاته.

إن ذلك يعني بحسب تقاليد الأنطولوجيا اللاميتافيزيقية التي تأسست مع فلاسفة ما قبل سقراط، وتحديدًا مع بارمنيدس أن «كل شيء يعود الى ذاته، وأن كل شيء في حد ذاته هو الشيء نفسه من أجل ذاته ومع ذاته»^(٣٧)، وهذا ماتعبر عنه الصيغة المعاصرة للاختلاف، تلك الصيغة التي ابتكرها هيدغر لمبدأ الهوية التي تأسست على قواعد فكر (فجر الفلسفة

على فكر الكينونة الذي يتيح للإنسان التحرر من أجل التخارج الفينمينولوجي-الأنطولوجي الذي يؤسس تاريخه الخاص به^(٤٠)، وبعيداً عن أي فكر تأسيسي يحدد طريقة وجوده في العالم.

يرى هيدغر أن خطوة الانتماء المشترك (appropriation) بين الإنسان والكينونة تعني الابتعاد عن مقولات الفكر الميتافيزيقي، وهي خطوة يمكن عدّها «قفزة الانطلاق بعيداً عن الفكر السائد الذي يجعل الإنسان حيواناً عاقلاً، وبعيداً في الوقت نفسه عن مقاربات فهم الكينونة التي ظهرت في بدايات الفكر الغربي (ما عدا فكر ما قبل سقراط)، ذلك الفكر الذي فسرها بوصفها الأساس الذي يتأسس عليه كل كائن بما هو كذلك، وعلى نحو مؤسس^(٤١)، والذي أدى إلى نسيان الكينونة بوصفها اختلافاً انطولوجياً عن الكائن الذي يؤسسها، ذلك النسيان الذي وجه عنايته نحو الكائن والاهتمام به بدل أن يوجه عنايته نحو الكينونة ذاتها التي ترشده إلى طريق الانفتاح نحو نور الوجود.

لذلك ولأن الإنسان قد تحدت ماهيته عبر خطاب الميتافيزيقا، أي بوصفه كائناً عاقلاً، فإنه لم يحفل بالانتماء المشترك، أي لم يفكر بهذا الانتماء بوصفه الماهية الأكثر اصالة لكيفية وجوده في العالم، ولأجل تحقيق ذلك الانتماء بين الكينونة والإنسان يرى هيدغر أنه ينبغي القيام بعملية مناورة كبرى تجعل الميتافيزيقا تتخذ وضعاً غير صالحها، وذلك عبر القيام بقفزة تقوض خطاب الميتافيزيقا، قفزة «قفزة توصلنا إلى الانتماء إلى الكينونة التي هي في حد ذاتها وبطريقة ما تنتمي إليها، وتكون معنا بوصفها حضوراً، أي الانفتاح على العالم»^(٤٢) لكي يعيش

تجربة وجود تتميز بالحرية، والتفرد، واللاتوقع. وهذا يعني أن تلك القفزة لا تؤسس مساراً معلوماً لكيفية وجود الكائن في العالم، فهي عبارة عن «دخول غير متوقع إلى عالم تجعل الإنسان والكينونة يعيش بعضهما بعضاً على نحو فعلي في عالمهما، وهي ماهية فعالة تجعل الواحد يفتح على الآخر، وعبرها تتحدد تجربة الوجود وتعرف»^(٤٣) في سياق طريقة محددة للحضور، أو الانفتاح على وضع معين في العالم «تخضعنا على نحو ممكن (محتمل) لنظرة تجعلنا لا نفهم بشكل كافٍ الواقع الذي يتواجد فيه الكائن على نحو فعلي»^(٤٤)، لكن الشيء الأكثر وضوحاً في هذا الوضع هو إدراك ذلك الانتماء المشترك بين الإنسان والكينونة على نحو غير ميتافيزيقي؛ لأجل أحداث الهوية الأصلية، أي علاقة الكائن بالفكر عبر قفزات أصلية تتخطى إيقاعات الميتافيزيقا الرتيبة، ومقولاتها التمثيلية التي تحجب عن الكينونة أصولها الفكرية التي تجعلها تتبادل الانتماء المشترك على نحو فكري حر؛ وذلك عبر الإصغاء لنداء الكينونة الذي يحقق انفتاح الكائن في نور الوجود لكي يقترب من الإنسان ويلتقي به عبر حدث تاريخي أصيل وغير متوقع (Ereignis) ذلك المفهوم الذي وجد هيدغر أنها من غير الممكن ترجمته إلى اللغات الأخرى.

إن الكينونة بوصفها حدثاً تاريخياً أصيلاً وغير متوقع تؤشر لحدث كبير، وهو أنه لم تعد تنطلق من الكائن لتتفكر في الكينونة بوصفها:

مثالاً، وفكرةً، وجوهرًا، وأداةً فقد أصبحت تفكر فيه بوصفه حدثاً غير متوقع وانعطافة جديدة في سلسلة التأويلات التي عرفتها الكينونة^(٤٥) عبر تاريخ الفلسفة الغربية.

أرى أن تشريح هيدغر لمبدأ الهوية الميتافيزيقي قد قدّم ثقافة مضادة، وذلك عبر تأسيس قيم وجهاز مفاهيمي ووضعيات تأويلية تؤسس لفكر الكائن بوصفه ينتمي الى هوية تقوم على مفهوم الانتماء المشترك، ذلك الانتماء الذي اطلق عليه مفهوم الحدث غير المتوقع والأصيل والمتفرد، حيث يفتح الكائن على العالم بوصفه قدرة على التواجد في نور الوجود على نحو أصيل، وبوصفه حدثا غير تقليدي لا يحدث على نحو اجتراري ومكرر، بل على نحو ابداعي وغير متوقع يتجاوز ما هو سائد نحو ما هو ممكن؛ وذلك لأن الدازاين هو حدث الانفتاح على العالم حدث يتأسس على تملك مشترك يفتح على نور الوجود من خلال تعالي الذات، أي تخارجها نحو العالم.

هيدغر في مواجهة هيغل

هناك حقيقة لا تخفى على كل من يطلع على الخطاب الفلسفي لمارتن هيدغر، هي أن هذا الفيلسوف دائما ما يجدد أدواته المفهومية في مواجهته الكبرى مع الميتافيزيقا، وهذا ما نجده جليا في مواجهته الفكرية مع هيغل أيضا، إذ قام بوضع استراتيجيات جديدة للسؤال عن معنى الكينونة؛ وذلك من خلال فتح قناة للحوار مع فلسفة هيغل، ونقده طريقة فهمه للفكر والكينونة والاختلاف بينهما.

بداية يتفق هيدغر مع الفيلسوف الألماني هيغل (١٧٧٠-١٨٣١) في أن الخطاب الفلسفي يهتم في المقام الأول بمسألة الكينونة، لكن هيغل يرى أن الكينونة تعني التفكير بها بوصفها فكرة مطلقة (The absolute idea) يتم التعامل معها عبر علم المنطق؛ وذلك لأن "المنطق يتحد مع الميتافيزيقا التي هي علم الأشياء

المدركة بالفكر وعلى هيئة أفكار قادرة على التعبير عن الحقيقة الجوهرية للأشياء»^(٤٦) في عالم الوجود، ومن ثم ترتقي للوصول، لأجل أن تصبح فكرة مطلقة، أي تصبح أساسا للكينونة.

وإزاء هذا الخطاب الفلسفي الهيجلي يقف هيدغر متحديا لذلك الخطاب عبر وضعه ثلاثة شروط أساسية يوضح فيها طريقة تفكيره المختلفة جذريا عن طريقة تفكير هيغل من ناحية: «موضوع التفكير» و«معيار التفكير» و«خصوصية التفكير»، لأجل التفكير في هوية الكينونة التي هي مثلما ذكرنا الموضوع الأول والأساس في الفلسفات الأنطولوجية.

فمن جهة موضوع التفكير يقول هيدغر أن هيغل يركز على فهم «الكينونة بوصفها الكائن الذي يتم التفكير فيه في الفكر المطلق. أما بالنسبة لنا فإن موضوع التفكير هو ذات الشيء، أي الكينونة بوصفها شيئا مختلفا عن الكائن»^(٤٧)، وهنا يظهر الفرق الكبير بين طريقة تفكير هذين الفيلسوفين في المسألة ذاتها، أي مسألة الكينونة.

أما من جهة معيار الحوار في هذه المسألة، فيرى هيدغر أنه مع هيغل «إن معيار الحوار مع تاريخ الفلسفة يكمن في الدخول بقوة في مجال ما تم التفكير فيه من لدن المفكرين الأوائل، على حين فنحن لا نسعى الى تلك القوة فيما سبق التفكير فيه، بل نسعى الى شيء لم يفكر فيه، والذي منه يستلم ما يفكر فيه فضاؤه الأساسي»^(٤٨)؛ لأجل تخليص تراث الفكر مما رسخ فيه، وحبب عنه أساسه الذي يمثل الشرط الأساس لصوغ فكرة الانتماء المشترك لهوية الكينونة.

وأما خصوصية الحوار مع ذلك التراث، فيرى هيدغر انه بالنسبة لهيغل» يكون الحوار مع التاريخ المبكر للفلسفة من خلال صيغة الرفع الديالكتيكي، أي توسط المفهوم في شكل أساس مطلق، وعلى أنه بالنسبة لنا فإن ميزة الحوار مع تاريخ الفكر يكمن عبر مفهوم خطوة الرجوع الى الوراثة»^(٤٩)، إذ إن هذا الرجوع يقف في منطقة اكتمال الميتافيزيقا وتموقعها بوصفها حقيقة مطلقة، ذلك الأكتمال الذي يجعل الفكر ينسى اختلافه، أي الاختلاف الأنطولوجي بين الكينونة والكائن في نور الوجود.

لذلك فإن مشروع خطوة الرجوع الى الوراثة ستقود الفكر الذاتي، أي فكر الكائن الى منطقة اللا مفكر فيه الذي طواه النسيان الى» الاختلاف ذاته، أي نحو ما يعطينا الفكر، وإن ما يتم التفكير فيه هو نسيان الاختلاف»^(٥٠) بوصفه حضوراً، وفعلاً للتفكير الذاتي الذي هو حدث التملك المشترك الذي يحدث فرقا جوهرياً للقدر التاريخي للكينونة.

فالكينونة كما يرى هيدغر وعلى خلاف هيغل هي قدر تاريخي»تشير الى الحدوث الأصلي للذاتين الذي يتميز بالعزم الأصيل، وبوصفه حرية إزاء الموت، وعبر الامكانات التي ورثها ومع ذلك فقد اختارها»^(٥١) بحريته، ومن ثم فإنه لا يمكن نفي ذلك التراث وسلبه عبر عملية الرفع والالغاء الديالكتيكية التي يقوم بها هيغل، لأجل الغائه ونفيه من دائرة التفكير، ولا سيما أن ذلك التراث يتوافر على قوة للإصغاء اليه، أي الإصغاء الى ندائه بوصفه كينونة الكائن الذي يتميز بالنتاهي والتوجه نحو الموت، فضلا عن كونه منبعاً للاختلاف.

ومع ذلك يرى هيدغر أن الحوار مع هيغل ضروري طالما أن ذلك الحوار يؤدي الى إثارة مسألة الهوية، هوية الكينونة قد طرحها بشكل مميز يختلف عن الطرح الميتافيزيقي التقليدي، إذ يرى أن»ذات الشيء (=الهوية) ليس مجرد تطابق، فعند التطابق يختفي الاختلاف، على حين أن في ذات الشيء ينبثق الاختلاف بشكل قوي كلما ازداد التفكير فيه على نحو جدي»^(٥٢)؛ لأجل اخراجه من دائرة اللامفكر فيه، أي اخراجه من دائرة التحجب والنسيان، والولوج الى منطقة اللاتحجب والفكر اللا ميتافيزيقي.

يرى هيغل أن التفكير في الهوية يعني» تأمل في الذات، بمعنى أن الهوية تصبح تنافرا داخليا مع ذاتها، وهذا التنافر بوصفه انعطافا نحو الذات يستعيد ذاته مباشرة الى ذاته، وبناءً على ذلك، فإن الهوية بوصفها اختلافاً، والتي تتطابق مع ذاتها (تكون متماثلة مع ذاتها)، إلا أن تماثل الاختلاف مع ذاته لا يكون الا بقدر ما انه ليس الهوية، بل اللاهوية المطلقة»^(٥٣) وهي ما تمثل الماهية في فلسفة هيغل الديالكتيكية****.

وبهذا التوصيف للهوية يزيح هيغل المفهوم الكلاسيكي لها، ذلك المفهوم الذي ظهر مع الفهم الصوري للمنطق التقليدي الذي جعل من هوية كينونة الكائن في حالة من المساواة المطلقة، أي عبارة عن وحدة مطلقة بين الكائن وذاته (=تحصيل حاصل) لا يمكن أن تنتقل تلك الوحدة من الثبات الى التحول الذي يميز الكينونة في فهمها المعاصر****.

ومع أن هذا التطور الكبير الذي حصل في فهم وحدة الهوية، أو الفكر في مرحلة هيغل، إلا أن هيدغر يرى أن الفهم الهيجلي بقي

أسير المطلق والفكر المؤسس في فهم هوية الكينونة، ولا سيما في تبنيه مفهوم الفكرة المطلقة التي تتحرك عبر التاريخ بوصفها تموضعا مرحليا للروح (=الوعي) في العالم، والذي به يتم سلب الفوارق الفردية؛ لأجل الحفاظ على جوهرها الأساسي، بوصفها الأساس الذي يحدد طريقة وجود الكائن في العالم، مما حرّم الكائن من التمتع بميزة الاختلاف الانطولوجي، فالميتافيزيقا بقيت مهيمنة على خطاب هيغل، إذ جعلته لا يعي الاختلاف الانطولوجي واستمر يفهم الكينونة بوصفها أساس الكائن في المقام الأول.

لماذا بقيت الميتافيزيقا لا تدرك أساسها حتى مع تطور ادائها في مرحلة الفلسفة الترنسندنتالية الالمانية، ولا سيما مع فلسفة هيغل؟

لقد وجد هيدغر أن المشكلة تكمن في الميتافيزيقا ذاتها، إذ إن تلك المشكلة ترتبط بالبعد اللاهوتي للميتافيزيقا، أو كما اطلق عليها في التكوين الانطولوجي للميتافيزيقا، ذلك التكوين في أساسه يتوافر على عنصر يجعل من الميتافيزيقا لا توجه عنايتها نحو ماهيتها الأصلية بوصفها قدرا تاريخيا وحدث تملك مشترك للانسان والكينونة.

إن مشكلة الميتافيزيقا تكمن في انها تتفكر بالكينونة بوصفها سؤالا عن العلة، فهي حين «تفكر في الكينونة فهي تفكر فيها بوصفها الأساس المشترك لجميع الكائنات، وهذا يعني انها تفكر من جهة الكائن الأعلى (العلة الأولى) الذي يعلل كل شيء، وبذلك يكون علم المنطق علما للآهوت»^(٥٤)، وإن القوام الانطولوجي للميتافيزيقا سيكون حاضرا في تأسيس الكينونة بوصفها أساسا تكوينيا مشتركا للكائنات، وهذا

ما وجد هيدغر في آلية التفكير عند هيغل أيضا. يرى هيدغر أنه مع أن هيغل قد غير من طبيعة فهم الكينونة وحرف اتجاهها نحو المغايرة والاختلاف، لكنه بقي اسير نزعة انطولوجية جعلت من الكينونة أساساً مفارقاً لفهم وحدة الهوية، ومن ثم فإن فكر الكائن، أي الوعي الذاتي سيبقى يزرع تحت هيمنة علة عظمى أطلق عليها الفكرة المطلقة.

فالكينونة بحسب هيدغر «لا يمكن أن تكون على شاكلة الكائن المؤسس؛ وذلك لان طبيعة الكينونة ذاتها هي أنموذج غير مسبوق بعلّة»^(٥٥)، إنها أي الكينونة هي حضور، وانفتاح على نور الوجود تنبثق هنا في شكل حدوث قدرتي، حيث الفكر لا يعود الى اصله لكي يتحصل على وجوده، فكل مايقوم بها هو الترحال عبر دروب متعددة لعالم التيه الذي هو النوع الوحيد الذي يكون في الكينونة التي تمنحنا عطاؤها على نحو دائم»^(٥٦) ومتجدد، ومتفرد، وعلى نحو غير متوقع.

لذلك فإن الكينونة ليست علة أولى، ولا تصورا كليا، انها القدرة التي تتصف بالعزم والتصميم على الوجود الأصيل في نور الوجود، وهي حدث انتماء مشترك مع الانسان، لتجديد طريقة وجوده في العالم، لكن في سياق الاختلاف الانطولوجي الذي يظهر في نطاق الفكر، فكر الكائن المتواجد في عالمه الذي يتوالم ***** فيه بوصفه كائنا زمانيا ومتناهيا لتحقيق وجوده الأصيل عبر قدر تاريخي مميز وحر، وبلغة دولوز التي هي قريبة من منظور هيدغر الانطولوجي، فإن فلسفة هيدغر تعني الانتقال من صورة الفكر الدوغمائية (=الميتافيزيقا)، الى فكر بلا

صورة (=فكر الكائن)؛ وذلك من خلال «تدمير صورة فكر يفترض نفسه مسبقاً، وولادة فعل التفكير في الفكر نفسه»^(٧٧)، ذلك الفعل الذي يحدث الفوارق في نور الوجود.

وهكذا يسعى هيدغر في مواجهته لهيغل إلى تأسيس استراتيجية لأخلاقيات حوار تتأسس على منطق الاختلاف الانطولوجي، وخطة للعب تخلق من كل قواعد مطلقة، لأجل تحقيق لعب حرّ يستند إلى فكر الكائن الذي يلعب في منطقة التيه والضلال حيث دروب الكينونة تجعل من الكائن ينكشف بوصفه قدراً تاريخياً أصيلاً، أي حدوثاً يبدأ في بسط ذاته^(٧٨)، ويجعل من ماهيته تشغل بوصفها الجوانب الممكنة التي تتحقق في العالم، ومن ثم فإن هذه الماهية التي هي عين وجوده لا يمكن انتزاعها من الكائن فهما شيء واحد في سياق الانطولوجية الهيدغرية.

الخاتمة

يمكن القول: إنّ ما قدمه هيدغر من تأويل حقيقة الكينونة يُعدّ كما وصفناه في بداية بحثنا ثورة كوبرنيكية ثالثة، تلك الثورة التي غيرت على نحو جذري طريقة فهمنا للكينونة، فلقد أحدث هذا الفهم فرقاً كبيرة ومميزاً يشار له بالانعطافة الكبرى التي هزت تاريخ الفكر.

إنّ المقاربة الفلسفية الهيدغرية تؤسس ميتافيزيقا الحدث، وليس ميتافيزيقا الجوهر الذي نجده في الميتافيزيقا القديمة، وإنّ هذا الحدث هو حدث الاختلاف بين الكينونة والكائن، ذلك الاختلاف الذي يمنع أي ممارسة تأسيسية تسجن الكائن في ميتافيزيقا تمثيلية تحدد طريقة وجوده سلفاً، لأن الكينونة مع هيدغر قد أصبحت

قدراً تاريخياً غير قابل للتكرار، فضلاً عن أنّ هذه المقاربة الإبداعية قد ازاحت التصور الكلاسيكي لمفهوم الإنسان الذي حُصر في سياق حيوانيته، أي وبصفه كائناً عاقلاً، وتأويله عبر وضعيات تأويلية نهائية ومطلقة لا تتناسب وقوام الإنسان الأساسي في كونه وجوداً في العالم.

لقد جعل هيدغر الكينونة هي الأصل في أي تأسيس لقدرة تاريخي أصيل للإنسان في العالم، وهذا يعني أنه جعل من التفكير في الكينونة تفكير في الراهن في سياق التناهي والزمانية، وعبر شروط إمكان وجودية تجعل الإنسان يتخرج عن ذاته نحو العالم على وفق تقاليد الاختلاف الانطولوجي؛ لأجل حدوث قدره التاريخي الأصيل على نحو مميز وغير متوقع.

بعد هذه الجولة الفكرية مع فلسفة هيدغر، أرى أنّ هذا الفيلسوف هو انعطافة كبرى في الفلسفة بعامة، والخطاب الفلسفي المعاصر بخاصة، ولولا هيدغر لانعطفت الفلسفة انعطافة أخرى ربما لا يمنحها إمكاناتها الإبداعية؛ لذلك أرى أنّنا مدينون لهذا الفيلسوف الذي يقظ الميتافيزيقا من سباتها الدوغماتيقي مع مواطنه عمانوئيل كانط.

الهوامش والإحالات

10- Ibid, p.24

11- Ibid, p.28

**استعمل كلمة تشريح بدلا من كلمة تحطيم (Destruction)، أو تدمير تاريخ الأنطولوجيا (=الميتافيزيقا) لتوصيف بنية الكينونة كما تبنت في تقاليد الميتافيزيقا التقليدية، لأجل الوصول الى الدلالة التي قصدتها هيدغر من برنامجه النقدي في الأنطولوجيا الأساسية.

12- Heidegger (M.): What is called thinking, (trans. by Fred Wieck) New York, Harper Row, 1968, p.120

13- Ibid, p.120

14- Heidegger (M.): Being and Time, P.43

15- Ibid, p.40

16- Ibid, p.41

17- Heidegger (M.): Nietzsche, (trans. by David Farrell Krell), New York, Harper & Row, Vol.2, 1961, p.250

18- Heidegger (M.): Being and Time, P.51

19- Ibid, p.56

20- Ibid, p.60

21- Heidegger (M.): Letter on humanism, Basic writings, London, Routledge & Kegan Paul, 1977, p.229

22- Ibid, p.229

٢٣- مارتن هيدغر: نهاية الفلسفة ومهمة التفكير، ت: وعد علي الرحبة، دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٦، ص٥٠،

٢٤- المصدر نفسه: ص٥٠

٢٥- مارتن هيدغر: العودة الى اساس الميتافيزيقا، ت: د. محمود رجب، ضمن كتاب: ما الفلسفة - الميتافيزيقا - هولدرلين وماهية الشعر

١- لو تيشيانوفلوربيدي: الثورة الرابعة، ت: لؤي عبد الحميد السيد، عالم المعرفة، الكويت، العدد (٤٥٢)، ٢٠١٧، ص١٢٠

٢- عمانوئيل كانط: نقد العقل المحض، ت: موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٣٤

٣- جيل دولوز، وفليكس غيتاري: ما هي الفلسفة، ت: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٧، ص٩٩

٤- مالك برادبري، وجيمس ماكفرلين: الحداثة، ت: مؤيد حسن فوزي، ج١، دار المأمون للترجمة للنشر، بغداد، ط١، ١٩٨٧، ص١٩

*جاء هذا الرفض ضمن رسالة جوابية بعثها هيدغر الى مؤلف كتاب (من الفينومينولوجيا الى الفكر) قال فيها: إنه لا يمكن التمييز بين مراحل تفكير هيدغر الفلسفي، لأن البناء الفلسفي الذي شيده في الواقع واحد، لكن يمكن التمييز في الذهن فقط.

Richardson (William J.): Heidegger – Through Phenomenology to the Thought, Netherlands, Martinus Nijhoff, 1967, p.ixie.

5- Heidegger (M.): Kant and the problem of Metaphysics, (trans. by James. S. Churchill), Indiana, Indiana Press, 1962, PP.3-4

6- Heidegger (M.): Being and Time, (trans. by John Macquarrie & Edward Robinson) , Great Blackwell , 1967, P.26

٧- مطاع صفدي: الحرية والوجود، مدخل إلى الفلسفة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، ١٩٦٣، ص٧٢

8- Heidegger (M.): Being and Time, P.47

9-Ibid, p.23

- 36- Heidegger (M.): Identity and Difference, (trans. by Joan stam-
baugh), New York, Harper & Row,
1969.p.23
- 37- Ibid, p.27
- ٣٨- مارتن هيدغر: ما معنى التفكير؟ ت: د. محمد
سبيلا، ضمن كتاب التقنية، الحقيقة، الوجود، المركز
الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٥، ١٩٩٥، ١،
ص١٨٧،
- 39- Heidegger (M.): Identity and Dif-
ference, p.31
- 40- مارتن هيدغر: نداء الحقيقة: ص 293-40
- 41- Heidegger (M.): Identity and Dif-
ference, p.32
- 42- Ibid, pp.32-33
- 43- Ibid, p.33
- 44- Ibid, p.33
- ٤٥- مارتن هيدغر: الزمان والوجود: ت: د. محمد
سبيلا، ضمن كتاب التقنية، الحقيقة، الوجود، المركز
الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٥، ١٩٩٥، ١،
ص١٢٨-١٢٩،
- ٤٦- هيغل: موسوعة العلوم الفلسفية، ت: د. امام عبد
الفتاح امام، مج١، دار التنوير، بيروت، ط١،
١٩٨٣، ص٩٧،
- 47- Heidegger (M.): Identity and Dif-
ference, p.47
- 48- Ibid, p.48
- 49- Ibid, p.49
- 50- Ibid, p.50
- 51- Heidegger (M.): Being and Time,
P.435
- 52- Heidegger (M.): Identity and Dif-
ference, p.45
- 53- Hegel: Science of logic, Trans.
By: A.V. Miller, Allen and Unwin,

- ، ترجمة: فؤاد كامل رجب، دار الثقافة للطباعة
والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٧٤، ص٧٧
- ٢٦- المصدر نفسه: ص٧٩
- ٢٧- المصدر نفسه: ص٧٩
- ٢٨- مارتن هيدغر: نهاية الفلسفة ومهمة
التفكير، ص٥١
- ٢٩- مارتن هيدغر: في ماهية
الحقيقة: ت: د. محمد سبيلا، ضمن كتاب
التقنية، الحقيقة، الوجود، المركز
الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٥، ١٩٩٥، ١، ص١٨
- ٣٠- مارتن هيدغر: نداء الحقيقة، ت: د. عبدالغفار
مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة
، ط١، ص٢٨٠،
- ٣١- مارتن هيدغر: العودة الى أساس
الميتافيزيقا، ص٨٢
- المصدر نفسه: ص 94-32
- 33- Heidegger (M.): Letter on human-
ism, Basic writings, and p.210
- ٣٤- مارتن هيدغر: مبدأ العلة: ت: د. نظير جاهل، المؤسسة
الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١،
١٩٩١، ص٩١،
- *** يرى فردريك نيتشة أن فلسفة بارمنيدس يمكن عدّها
تمهيدا لعلم الوجود؛ وذلك عندما وجد أن جوهر
الفكر ليس معطى حسيًا، بل انه يتولد من أصل
آخر من عالم ما فوق الحس يمكن اختراقه بالفكر.
نيتشة: الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي، ت: د.
سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات
والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ط٢، ص٧٤. أما برتراند
رسل فقد رأى ان ما ابتكره بارمنيدس ينتمي بالفعل
الى الميتافيزيقا المستندة الى علم المنطق:
- Russel (B.): History of western Philos-
ophy, Touchton, New York, 1970,
p.48
- 35- Burnet (J.): Early Greek Philoso-
phy, Adam and Charles black, Lon-
don, p.176

ference, p.70

55- Ibid, p.66

56- Vatimo (G.): The end of Modernity,
Trans.BY: Jon R.Snyder, John Hop-
kins University press, 1991, p.174

***** لا يعني هيدغر بتعولم العالم المفهوم المعاصر
لهذه الكلمة؛ أي العولمة، بل ان لفظة التعولم عنده
تعني أن الكائن يوجد على نحو دائم في العالم الذي
يشكل القوام الانطولوجي له.

٥٧- جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ت: د. وفاء
شعبان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١
٢٠٠٩، ص٢٨١،

٥٨- مارتن هيدغر: السؤال عن الشيء (حول نظرية
المبادئ الترنسندنتالية عند كانت)، ت: د. اسماعيل
المصدق، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١
٢٠١٢، ص٧٨-٧٩،

London, 1965, pp.409-410

***يوضح جان هيوبوليت الذي هو أحد شُراح
هيدغل الفرنسيين، إن الماهية تمثل التكامل
الذاتي للهوية التي تظهر في ذاتها فالمظهر
هو الشيء نفسه بوصفه تأمل، وان هذا التأمل
ذاته هو: الهوية، والاختلاف، والتناقض، إذ إن
تلك الاساسيات تشكل التأمل، أي الانعطاف
نحو الذات فالكينونة التي تظهر تتطابق مع
ذاتها التي هي اختلاف جوهري، وهذا يعني
الاختلاف في ذاته، ومن ذاته، أي انها تناقض
ذاتها. ينظر: Hyppolite (J.): Logic
and existence: trans. By: Leonard
Lawler and Amit Sen, STATE
UNIVERSITY OF NEW YORK
PRESS, ١٩٩٧, p.١٧٣

***** كان لحضور سبينوزا ولايبنتز أثر كبير في
تطور الفلسفة الالمانية في المرحلة الحديثة، ولا سيما
في تطور مفهوم الهوية لدى الفلاسفة الالمان، ومع
هيدغل على وجه الخصوص.

إن مفهوم سبينوزا للجوهر الذي حدده بوصفه ذلك
الذي يوجد بذاته ويتصور بذاته، أي ما لا يتوقف
بناءً على تصوره تصور شيء آخر، ولا يتوافر
على صفة مشتركة مع الآخر، ولايبنتز الذي وجد
أنه لا يصح أن يتشابه جوهران تشابه كلياً، وان
لم يختلفا اختلافاً عديداً، إذ إن هناك سمات
اساسية تجعل كل جوهر مختلف عن الآخر قد
غيراً من طريقة فهم وحدة الهوية بين الكينونة
والكائن، أو فكر الكائن الذي يتواجد في العالم في
منظومة هيدغل الفلسفية. ينظر: لايبنتز: مقالة في
المتافيزيقا، ت: د. الطاهر بن قيزة، المنظمة العربية
للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص١٢٠، وكتاب
المونادولوجيا، ت: د. عبد الغفار مكاي، دار الثقافة
للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨، ص١٢٨-١٣٠.
وكتاب سبينوزا: علم الاخلاق، ت: جلال الدين
سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١
٢٠٠٩، ص٣١.

54- Heidegger (M.): Identity and Dif-

Martin Heidegger: From the Critique of Metaphysics to the Thought of Being The Third Copernican Revolution

Asst.Prof. Karim Hussein Al-jaff(Ph.D)
University of Mustansiriya/ College of Arts / Department of
Philosophy

Abstract

This study is concerned with the revolution of the German philosopher Martin Heidegger and his critique of traditional metaphysics which was called the Third Copernican Revolution in the Western cultural project. The research also deals with the conditions of identity and its relation to the concept of difference, The divergence of views has been neglected and forgotten by traditional metaphysics according to Martin Heidegger. The researcher supports the view that Heidegger practice hastaken away shiftal the philosophical discourse from the essential understanding to the modren tendency in understanding metaphysical issues, especially the question of being the fundamental material for any philosophical discourses that seek to understand the ability of the being to exist in the world. Keywords: metaphysics, variation, ontological difference.